معركة الأسقف والفيلسوف

13

لم تكن رواية عزازيل هى الرواية الأولى فى حياة يوسف زيدان فقد أصدر قبلها روايته ظل الأفعى،لكن اسمه أصبح مرتبطا بعزازيل أكثر،ولم تكن جائزة البوكر العالمية هى الجائزة الأولى التى حصل عليها فى حياته،فهناك جوائز أخرى حصل عليها لها قيمتها الكبيرة، فقد حصل فى العام ١٩٩٤على جائزة مؤسسة عبد الحميد شومان للعلماء العرب الشباب في مجال العلوم والفلسفة الاجتماعية عن كتابه «فوائح الجمال وفواتيح الجلال للصوفى نجم الدين كبرى» وكان ذلك أول عمل ينشر فى الدول العربية عن ذلك الصوفى الكبير.

ثم كانت هناك جائزتان حصل عليهما من مؤسسة الكويت للتقدم العلمى عن

كتبه وتحقيقاته حول إسهامات ابن النفيس فى الطب،لكن تظل البوكر هى الجائزة الأهم فى حياته،من وجهة نظره وكما قال بعد حصوله عليها:هى تختلف من حيث الملامح والميدان لأنها جائزة للكتابة الروائية بصورة خاصة.

لكن من وجهة نظرى أنها تختلف لأنها وضعته فى دائرة الضوء،وهو ضوء لا يضمن لصاحبه بريقا فقط ولكن يضعه فى دائرة الحريق أيضا،فمنذ حصوله عليها وهو فى مرمى السهام من الكنيسة المصرية التى تعاملت مع عزازيل منذ اللحظة الأولى على أنها رواية مارقة تستحق الحرق ويستحق صاحبها القتل.

منذ اللحظة الأولى لصدور الرواية عن دار الشروق والكنيسة توجه سهامها إلى قلب يوسف زيدان،لكن بعد حصوله على البوكر زادت السهام،واتسع ميدان المعركة ضده،لأن فى الجائزة اعترافًا عالميًا بقيمتها وأهميتها وهو ما أقلق منام رجال بعينهم فى الكنيسة وجعلهم يجهزون أسلحتهم من جديد لخوض معركة ضد الفيلسوف الذى قال كلمته ومضى،لكن هناك من يريد أن يلحق به ويجعله يدفع ثمن ما كتبه.

ميدان المعركة الدائر الآن يجمع فى ضفة منه الأنبا بيشوى سكرتير المجمع المقدس والرجل الذى يوصف بأنه الرجل الثانى فى الكنيسة ويستمتع كذلك بلقب حارس باب العقيدة الأرثوذكسية،وقد يكون هذا اللقب تحديدا هو ما يلهب حماسه ليخوض معركة تكسير عظام ضد يوسف زيدان،حتى يظهر الأنبا بيشوى وكأنها يستحق لقب أطلقته عليه صحف قبطية صغيرة يرعاها هو بنفسه ويغدق عليها من أموال أبراشيته التى تضم دمياط وكفر الشيخ والبرارى.

والطرف الثانى هو الدكتور يوسف زيدان ،ويوسف مواطن مصرى صعيدى من مواليد سوهاج فى العام ١٩٥٨،أى أنه يحمل على كتفيه ٥١ عامًا،أنفق معظمها فى تحصيل العلم ودراسة المخطوطات التى هى تخصصه الرئيسى،وهو فى الوقت نفسه أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم ومدير مركز المخطوطات بمكتبة

الإسكندرية،ولديه اهتمام خاص بتاريخ التصوف الإسلامى وله فيه مؤلفات عديدة.

حجم الرجلين الضخم والكبير هو الذى منح المعركة الدائرة بينهما قيمتها وقوتها،فنحن أمام طرف يدافع عن شرعية وجوده وهو الأنبا بيشوى الذى يحرص على أن يبدو فى صورة المدافع عن كنيسته بكل الطرق،حتى لو أخرجه هذا الدفاع عن وقار رجل الدين الذى يجب أن يلتزم بأصول اللياقة فى معاركه ومحاوراته الفكرية،وطرف يدافع عن قناعاته وأفكاره وعمره الذى أنفقه عن طيب خاطر فى تحصيل علوم الفلسفة وتاريخ التصوف الإسلامى وهو يوسف زيدان.

لدى الأنبا بيشوى ملاحظات محددة على رواية عزازيل يمكن أن نجملها فيما صرح به بيشوى،فهو يرى أن يوسف زيدان سعى بروايته إلى تدمير الإيمان بالله ليس فى المسيحية فقط ولكن فى كل الأديان،ولا يعترف بيشوى بأن ما قدمه زيدان مجرد عمل أدبى يجب التعامل معه على لأنه ابن شرعى للخيال،ويدلل على ذلك بمجموعة من الصور التى نشرها زيدان فى نهاية روايته لعدد من الأديرة وهو ما يؤكد لديه أن وقائع الرواية حقيقية ولابد أن يحاسب زيدان عليها.

ويرى الأنبا بيشوى أن عزازيل بها اتهام واضح لبابا الإسكندرية التاسع عشر بأنه قتل أريوس،وبها اتهام واضح كذلك لكيرلوس عامود النور الذى كان البابا الرابع والعشرين بقتل «هيباتيا» الفيلسوفة الوثنية،وهنا تحديدا يمكن أن نفهم سر الغضب الكبير الذى يبديه بيشوى على الرواية وصاحبها،ففى الرواية طعن مباشر لرجال الكنيسة الكبار،حيث صورتهم على أنهم قتلة وقطاع طرق،وهذا من وجهة نظر بيشوى أمر لا يليق.

هذا هو السبب الرئيسى لغضب بيشوى فيما أعتقد،الأسباب الأخرى قد لا تكون لها نفس الأهمية،فليس معقولا أن نتجاوب مع ما يقوله بيشوى من أن الرواية تهز الإيمان الأرثوذكسى لدى المسيحيين فى مصر،وذلك له أسبابه فليس

معقولا ولا متصورا أن تهز رواية مهما كانت قوتها إيمان المسيحيين بدين المفروض أنه راسخ فى قلوبهم على مدى قرون عديدة،ثم وهذا مهم جدا،فإن تخوف الأنبا بيشوى من أن تهز الرواية إيمان المسيحيين يشير إلى أن رجال الدين المسيحى المنتشرين فى كنائس مصر على طولها وعرضها لا يقومون بدورهم،وإنما يهزلون ولا يقومون بعملهم وهو أمر مستبعد،فالكنيسة فى ظل الأوضاع السياسية الراهنة التى تعتصر الكنيسة تجعل رجالها مثل القابضين على الجمر،يدافعون عن إيمان رعاياهم بكل ما لديهم من قوة.

الأنبا بيشوى غضب من الرواية لأنه لا يعتبرها عملا أدبيا،بل هى عبارة عن قلة أدب،وهى كلمة قالها بالنص فى توصيفه لعمل زيدان،ويبرر ذلك بأن فى الرواية ٥٢ صفحة كاملة بها توصيف جنسى فاضح بين راهب وعاهرة،ويحاول بيشوى أن يكون أمينا مع نفسه من خلال اعترافه بأنه لم يقرأ هذه الصفحات، لأنه لا يليق بمثله أن يقرأ مثل هذه المشاهد الجنسية،لكنه عرف بها من خلال من يثق برأيه ويثق فيه.

وهى نقطة مهمة فى تفسير الخلاف،فالكنيسة المصرية تعانى منذ سنوات طويلة عما يتردد عن الانحرافات الجنسية والممارسات الشاذة التى تقع بين جدران الأديرة ويقع أسرى لها رهبان كبار،وعندما يأتى يوسف زيدان ليصور مثل هذا المشهد فإنه يؤكد بذلك الصورة التى يرفضها الأقباط لما يقال عن هذه الانحرافات،وفى غضب بيشوى أيضا دفاع عن صورة رجل الدين المسيحى الذى يحرص على أن تظل لامعة وبراقة.

هذه النقطة تحديدا فندها يوسف زيدان فى حواره مع مجلة المصور حيث قال عنها:الجنس فى الأدب له عدة وظائف من أهمها تجسيد الخيانة وبيان حدودها،وفيما يخص «هيبا»كان لابد من بيان طبيعة شخصية «أوكتافيا»من خلال هذا الفعل الإنسانى البديع،علما بأن المشاهد الجنسية هنا لم تكن مجرد تصوير

لعلاقة بين رجل وامرأة فى المطلق،ولكن كانت تجسيدا للمفهوم العربى أى العلاقة التى يكتمل بها الوجود الإنسانى بين الرجل والمرأة،لذلك كانت المشاهد الجنسية فى الرواية مختلفة فى حالة «أوكتافيا»عن مثيلتها مع «مارتا».

مع «أوكتافيا» – كما يقول زيدان – كان اللقاء بين عالمين وثقافتين بالكامل،أما مع مارتا فقد كان كلاهما متأثرا بالثقافة المسيحية العامة التى كانت سائدة،وهذه مسألة يعرفها القراء والنقاد الواعون،ولن يهولنى أن البعض ينظر إلى هذا الأمر نظرة سطحية ولن يعوقنى عن تقديم أدب حقيقى.

صاغ يوسف زيدان وجهة نظره بشكل أكثر تهذيبا مما فعله الأنبا بيشوى،لكن كلامه فى النهاية يحمل اتهامين لا يمكن أن ننكرهما،الأول أن الأنبا بيشوى تعامل مع الرواية بسطحية شديدة،والثانى أنه لا يفهم فى أصول وقواعد الأدب الحقيقى،وأن ما يفعله الأنبا بيشوى من تهديدات وصخب حول الرواية لن يمنع زيدان من أن يكمل طريقه الروائى الحقيقى خاصة أنه يعمل الآن فى رواية جديدة هى «النبطى:وهى عن حياة الأنباط فى الأردن،وهى الرواية التى جعلته يقيم لمدة ستة شهور على الأقل فى المنطقة بين البتراء وعفراء فى الأردن ليستكمل أحداث ووقائع روايته،وفى ذلك إشارة إلى أن زيدان لا يعمل من فراغ، ولكنه يتوفر لعمله حتى يخرج مكتملا إلى حد ما.

فى ساحة المعركة بين الأسقف والفيلسوف يظهر بعض الجنود الصغار الذين يريدون أن ينالوا من قيمة عزازايل ومن أمانة يوسف زيدان الروائية والعلمية فى آن واحد،وهنا أشير إلى ما قام به القمص عبد المسيح بسيط الذى يعلى من قيمة أن يوسف زيدان ليس أديبا أصيلا،وإنما سطا على روايته من رواية «كينجزلى»عن هيباتيا،وهو اتهام فرعى لا يمكن أن نلتفت إليه خاصة أن زيدان قلل منه واعتبره أمرا ساذجا ومضحكا،فالمعركة قائمة بين الكبار وليس مفيدا أن نلتفت إلى من يحاولون إلقاء الحجارة الصغيرة فى الميدان.

لكن لماذا هذا الخلاف الكبير والصاخب والذى تجاوز حدود الأدب فى كثير من مراحله بين الأنبا بيشوى ويوسف زيدان،إنهما يعرفان بعض جيدا،بل إنهما وفى فترة من فترات حياتهما كانا صديقين حميمين،وهو أمر طبيعى فهناك أمور مشتركة تجمع بينهما وتضعهما على طريق واحد،فإذا كان يوسف زيدان متخصص فى المخطوطات فإن الأنبا بيشوى خبير بها،بل إنه يعتبر أمين سر الكنيسة المصرية فيما يتعلق بالوثائق والمخطوطات الخاصة بها،ولابد أن الرجلين جمعت بينهما جلسات كثيرة فيما يخص أمر المخطوطات،ومن يدرى فقد يكون هذا الاهتمام المشترك هو الذى يقف وراء سر الخلاف والعداء القائم بينهما،فمن يدرى ماذا حدث؟

هل يكون زيدان قد اكتشف بما لديه من علم وخبرة أن البضاعة التى يملكها بيشوى فى مساحة المخطوطات هزيلة وبائرة ولا قيمة لها،وأنه ليس أهلا لأن يجلس مكانه،وأنه بعدم تخصصه فى المخطوطات يهدر قيمة ما لديه...قد يكون كذلك،لكن من يدرى....فخلف الأبواب المغلقة توجد أسرار كثيرة لا يعرف مداها ولا خطرها إلا الله وحده.

تبادل الرجلان الزيارات التى كان يغلب عليها الشكل الاحتفالي،دعا بيشوى زيدان إلى دير القديسة دميانة ليلقى محاضرة عن التصوف الإسلامى،وكسر بيشوى من أجله القاعدة الشهيرة بألا يدخل رجل مبنى الراهبات مهما كانت قيمته ودرجته،لكن بيشوى فعلها من أجل عيون صديقه زيدان،ودعا زيدان الأنبا بيشوى إلى مكتبة الإسكندرية ليلقى محاضرة عن المخطوطات،ويومها طاف به ومن معه فى مكتبة الإسكندرية،لكن من يدرى فيومها أيضا قد يكون زيدان اكتشف ما عند بيشوى من هزال.

ثم كانت الأزمة الكبرى بعد أن صدرت رواية عزازيل،أخذ بيشوى على نفسه عهدا بالتصدى لها،وجمعه بزيدان مؤتمر القبطيات الذى عقد فى كاتدرائية

العباسية،وقد حكى الأنبا بيشوى ما دار فى هذا المؤتمر الذى حضره زيدان وألقى فيه كلمة.

قال لى الأنبا بيشوى والكلام له بالنص –من حواري السابق معه –: بعد أن أصدر يوسف زيدان روايته «عزازيل» وحدثت مشكلة ،كان بعدها عندنا مؤتمر القبطيات فى الكاتدرائية وتمت دعوته من منظمى المؤتمر وليس من الكنيسة،وأنا ألقى كلمة الافتتاح نيابة عن البابا كان هو جالسا فى الصف الأول إلى جوار أحد الأساقفة الضيوف وقال له:على فكرة الأنبا بيشوى بيرد على،رغم أنى لم أذكر اسمه.

قدمت وثائق على ما قلته ووزعت كلمتى التى كانت مكتوبة بالإنجليزية على الحاضرين،فى اليوم التالى ألقى يوسف كلمته بالعربية وفيها«شحور الدنيا خالص»وعندما وقف هانى فايز الذى يدرس اللغة السريانية فى جامعة القاهرة ليرد على زيدان لم يمكنه من ذلك وظل يتحدث حتى انتهى وقت المحاضرة ولم يسمح لأحد بأن يرد عليه من الحاضرين.

محاضرة يوسف زيدان كانت فى منتهى السوء،بل كانت أسوأ من روايته «عزازيل»،وبعد كده قال جى عايز يصطلح،قلت له لما أطلع الكتاب بتاعى للرد عليك الأول نبقى نصطلح،وبعدين نصطلح إزاى وهو جاب المسيحية من أصولها فى الأرض ،أساء للجميع وبعد كده جاب راهبًا خياليًا قال أنه بيزنى مع وثنيات وقعد ٥٢ صفحة من روايته يصف الليالى الحمراء التى قضاها الراهب مع الوثنيات.

عن نفسى لم أقرأ هذه الصفحات،ومن قرؤوها قالوا لى : إننى لن أستطيع أن أتحملها،قالوا لى:مش هتقدر تستحمل الوصف الجنسى فيها والأسلوب الخارج فى وصف علاقة الراهب بالوثنيات،وهذه الصفحات فقط هى التى لن أقراها ولن أرد عليها،لكن الأشياء العقائدية والتاريخية والوثائقية هى التى سأرد عليها.

عندك مثلا ما زعمه من أنه جاء بوثيقة سريانية وقال :إنه ترجمها ليوحى للقارئ

أنه يعرف السريانية،فأنا طلبت من هانى فايز وهو يعرف سريانى كويس ومتخصص فيه،أن يعمل مداخلة على الهواء مع يوسف زيدان فى أحد البرامج وقال له ٣ جمل سريانية على الهواء فضحك يوسف زيدان وقالت المذيعة : إن هذا يبدو أنه اختبار على الهواء مباشرة.

وماحدث أن يوسف زيدان لم يفهم ولا كلمة واحدة من الجمل السريانية التى قالها له هانى فايز،ثم ادعى بعد ذلك أنه استعان براهب قبرصى اسمه جوزيف ليراجع له الترجمة التى قام بها للمخطوطة السريانية التى قال : إنه إستعان بها فى الرواية،لدرجة أن البعض أعتقد أن هناك وثيقة بالفعل رغم أن الأمر كله من خياله لا أكثر.

لقد تجرأ يوسف زيدان على تاريخ الكنيسة ولخبطه جدا،وأكثر اللخبطة حدثت فى تاريخ البابا كيرلس عمود النور البابا رقم ٢٤ فى تاريخ الكنيسة،والبابا أليكسندر رقم ١٩ فى تاريخ الكنيسة،ذكرهم بالاسم وذكر وقائع وأحداث،يوسف خبط فى العقيدة المسيحية بالكتاب بتاعه،ولو هو عامل الرواية عن راهب بيزنى مع وثنيات كنا قلنا : إنها رواية وعيب يكتب مثل هذا الكلام وينتهى الموضوع،فهى رواية خارجة عن اللياقة والأدب،لكنه خبط فى العقيدة المسيحية مباشرة ولذلك فأنا لم أقبل أن أجلس معه...وسأرد عليه.

ولن يكون ردى عليه سريعا،فمنذ صدرت الرواية وأنا أعمل ولن يكون الرد مهاترات.

استوقفت الأنبا بيشوى وقلت: لكن هل يستدعى كل هذا ألا تقابله وأن تسمع له حتى تصلا إلى كلمة سواء كما يقولون؟

قال:لو كان يوسف يريد الصلح لما قال للأسقف وهو فى مؤتمَر القبطيات أننى أرد عليه الآن،لقد كنت مندوب البابا ،وكان يمكن أن أقول لهم طلعوا الرجل ده بره لكننى لم أفعل ذلك،أنا لم أشرف على المؤتمر صحيح لكننى لو صممت على

ذلك كانوا طلعوه بره،وكان يجلس على يمينه ويساره أساقفة لم أقل لهم قوموا من مكانكم وسيبوا الراجل ده يقعد لوحده،أنا أخذت موقف محايد ولم أطلب شطب اسمه من برنامج المؤتمر،وكان فيه سابقة فمنظمو المؤتمر الألمان كان جايبين واحد يهودى ولما إتعرفت الدعوة دى قالوا آسفين ولم يتمكن من الحضور،كان يمكن أن نفعل ذلك مع زيدان لكن هذا لم يحدث.

زيدان لم يحترم أنه يتحدث فى بيتنا وتسجيل محاضرته موجود،لقد كرر ما سبق وقاله فى الرواية التى أغضبت الكنيسة،لقد وقف فى الكاتدرائية ومسح بنا الأرض ولم يعط فرصة لأحد كى يرد عليه فهل هذا أسلوب،وهل بعد ذلك يمكن أن نجلس ونصطلح معه؟

إن ما حدث بين الرجلين الكبيرين لا يخرج عن كونه ضجة فقط.افتعلها الأنبا بيشوى بلا داعى،وأغلب الظن أن هناك أمور شخصية فى المعركة،يمكن أن نصل إليها وهو ما يمكن أن يحدث ،وإن لم نستطع فعلى الأقل نثبت أن الخلاف بين الرجلين ليس موضوعيا فهناك فى دواخل النفوس الكثير والله وحده أعلم بالسرائر.